

في قماش البيرة

## حديث عداس

للدكتور طه حسين بك



قال عتبة بن ربيعة  
لأخيه شيبه : أنظر  
إلى هذا الرجل المقبل  
على حائطنا ومن ورائه  
السفهاء والمبيد قد  
أغروا به وسلطوا عليه ،  
فهم يؤذونه بالسهم ،  
وهم يؤذونه بما يحصبونه  
به من الحصى  
والأحجار ! ألا تثبته ؟

قال شيبه وقد نظر فأطال : بلى ! والله إنى لأعرفه كما تعرفه ،  
وإن قلبي ليرق له كما يرق له قلبك ، وإن نفسي لتثور غضباً له كما  
تثور نفسك ، ولقد همت وما زلت أنازع نفسي أن أفزع إلى  
نصره وجواره وحمايته من حلفاء ثقيف وسفهاها ، لولا ما بينه  
وبين قومنا ، ولولا أنى أعلم أننا إن فعلنا كان لنا مع قومنا  
أمر عظيم وخطب جليل . قال عتبة : وارجحاه لابن عمنا من قومه !  
ثم وارجحاه لقومنا من أنفسهم ! ما كنت أحسب أن يبلغ الأمر  
بقريش أن يذل عزيزها ونحن شاهدان ، وأن يجترى حى من  
أحياء العرب وإن كانوا ثقيفاً ، على أن يسوءوا رجلاً من قريش  
وإن كان مستضعفاً مهيناً . فكيف بابن عبد المطلب وابن أخي حمزة  
والعباس ؟ وكان هذان الرجلان من أشرف قريش قد ذهبا إلى  
بستان لها في الطائف يصلحان من أمره وأمرها ، وبهيتان  
لتجارتهما : يجعلان ما تنفذه ثقيف مع تجار قريش إلى اليمن في  
رحلتها إلى اليمن ، وإلى الشام في رحلتها إلى الشام . وكانا قد أقاما  
في الطائف أياماً ، وأقبل في أثناء ذلك النبي صلى الله عليه وسلم  
يمرض نفسه على ثقيف يلتمس عندهم النصر والعون والجوار بعد  
أن تنكرت له مكة بطاوعها وظواهرها ، وبعد أن تنكر له الناس

حتى أقربهم إليه وأدناهم منه ، وبعد أن فقد عمه الذي كان يمنعه  
ويقوم دونه ، وبعد أن فقد زوجته التي كانت ترعاه وتكفؤه وتحوطه  
بالرحمة والحب والحنان ، وكان قد لزم داره بعد هاتين الكارثتين  
لا يكاد يرحها خائفاً محزوناً حتى أقبل عليه عمه أبو لهب فأمنه  
وأعلن إليه أنه يقوم من حمايته بما كان يقوم به أبو طالب . فرى  
عن النبي الكريم شيئاً واستأنف الخروج من داره والمذهب إلى  
المنجد ، والاضطراب في مكة ، ولكن قوماً من قريش ألحوا على  
أبي لهب حتى غيروه على ابن أخيه فاسترد جواره وحمايته ، وعاد  
من حرب النبي وعداوته إلى مثل ما كان عليه قبل أن يموت  
أبو طالب . فلما ضاقت مكة بخير أبنائها خرج إلى الطائف يلتمس  
جوار ثقيف ، فأقام فيهم ما شاء الله أن يقيم ، يسى عند هذا  
ويتلطف لذلك ، وكلام يرده وكلام يمتنع عليه ، وكان مقامه فيهم  
قد أخافهم وثقل عليهم وأثار في نفوسهم إشفاقاً أن يعيب مدينتهم  
ما أصاب مكة من اضطراب الأمر ، وانتفاض الضعفاء على الأقوياء  
واستجابة قوم لهذا الرجل الذي أنكره قومه ولم تره مدينته إلا  
ما يكره . ففقدوا إليه في الرحيل عنهم ، ولم يكذبوا حتى أغروا  
به سفلة الناس وسفهاهم فتبعوه يؤذونه بالقول والفعل حتى ألجأوه  
ضيقاً مكثوراً وكثيلاً محزوناً إلى حائط هذين القرشيين ، وأقبل  
النبي وقوراً هادياً ، انطلى مطمئن النفس ، تظهر على وجهه الكريم  
آيات الضعف . ، وآيات القوة ، وآيات الحزن ، وآيات الرجاء .  
ضعف مصدره الجهد والعناء ، وقوة مصدرها الحزم والعزم ، وحزن  
مصدره الرحمة لهؤلاء الذين يدعوهم إلى الخير فينبغونه بالسوء ،  
ويرشدهم إلى النجاح فيريدونه بالكروه ؛ ورجاء مصدره الثقة لأن  
الله لم يختره لرسالته ليخذه قبل أن يتم أمره ، ويعلى كلمته ، ويظهر  
دينه على الدين كله ، وبأن الله لا يبيده بما يبيده به من المكروه  
إلا امتحاناً لقلبه وابتلاء لنفسه وتحصيماً لطبعه

أقبل هادئاً واناس من ورائه مضطربون ، مستأنياً والناس من  
ورائه مسرعون ، حتى انتهى إلى ظل من ظلال البستان فجلس متعباً  
مكدوداً ، والقرشيان ينظرون إليه ويرقان له ويمطقان عليه ، وينازعان  
نفسهما إلى نصره ومعرته ، وقد كادا يفعلان لولا أن ذكرا قريشاً ،  
ولولا أن ذكر عتبة بن ربيعة صهره أباسفيان وقدر ما يلقاه وما يلقاه  
أخوه من قريش إن منح محمداً معونة أو نصراً ؛ ولكنهما رأيا

رق ، أعمل لكما يدي في هذا البستان ، وما عملت لأحد قبلكما يدي ، وما عملت لنفسي يدي ، وإن كان الناس ليعملون لي كما أعمل لكما الآن ؟ قال عتبة وقد ثارت في نفسه طبيعة العروى الذى أترف وفيه فضل من بدواة ، فهو مشغوف بالقصص ، كان بغريب الحديث . قال عتبة : وإن لك لحديثاً قديماً بينه وبين حديثك هذا الجديد سيباً . قال عداس : نعم . قال عتبة : فاقصص علينا حديثك . وأخذ القرشيان مجلسهما استعداداً لسماع الحديث ، وهم العبد أن يبدأ حديثه قائماً ، ولكنهما أذنا له في الجلوس فجلس وأطرق وأغرق في صمت غير طويل ، ولكنه كان عميقاً . ثم قال : لقد انتهيت الى هذا الرجل منذ حين فسمعته يقول كلاماً ما أعرف أن الناس يقولونه أو يقولون مثله في هذه الأرض . فلما سألته عن ذلك حدثني بحديث ما يعرفه إلا نبى ، وكان حديثه هذا منى على ميعاد ، أو كنت أنا من حديثه هذا على ميعاد . لقد سألتني سؤالاً لم يسألني أحد منذ وطئت هذه البلاد . سألتني عن موطنى الذى نزلت منه ، فأبأنه بما لا تعلمان وبما يحسن أن تعلماه الآن ، وهو أنى رجل من أهل نينوى ، نشأت في بيت من بيوت الأحرار الذين إن لم يتح لهم الملك والامارة ، فقد أتاحت لهم الثروة والغنى ؛ وكنت موفور الحظ من النعمة وحسن الحال ، فارغاً لما يفرغ له أمثالي في تلك البلاد من تقسيم الوقت بين لذة الجسم ولذة العقل ؛ ألهو ما وسعنى الله ، ثم أقرأ وأختلف إلى مجالس العلماء والفلاسفة من القس والرهبان فأسمع منهم وأتحدث إليهم ، وأخذ معهم في ألوان من الجدل حول ما يختلف الناس فيه عندنا من أصول الدين والعلم ، وأنا لا تعلمان من أمرنا في تلك البلاد إلا قليلاً ، إننا نعيان ويعنى قومك بما تحملون البنا من تجارة ، وما تصدرون به عنا من مال ، وما تصيبون في بلادنا من هذه اللذات اليسيرة . فأما مادون ذلك فليس لكم به علم ، وليس لكم عنه سؤال ؛ ولو قد دخلتم في حياتنا وعرفتم دقائق أمرنا ، لرأيتم أن في نفوسنا اضطراباً شديداً ، وغلياناً متصلاً ، وضيقاً بالسلطان ، وتمرداً على النظام ، وإنكاراً لما ورثنا من عادة ، وشكاً فيما تلقينا من دين . ساءت فينا سيرة السلطان فتقمنا من نظام الحكم ، وساءت فينا سيرة القس فشككنا في الدين ؛ فأما العاجزون فقد أعطوا طاعة ظاهرة وأضرموا عصياناً خفياً ، وعكفوا

ابن عمهما يأوى الى ظلالها مكروباً محزوناً ، فلم يملك أن يتنما عن أن يناله بأيسر الخير وأهون البر ، فيدعوان عداساً عبداً من عبيدهما ويأمرانه أن يحمل إلى هذا الرجل الضعيف المكدود شيئاً من غيب البستان ليصيب منه ، ويعضى العبد منفذاً أمرهما ، ولكنهما لا يستطيعان أن ينصرفا عن مكانهما ولا أن يحولا بصرفهما عن ابن عمهما ، وقد أهنت فيه قريش كلها ، لولا أن قريشاً قد احتفظت بأحلامها فهما ينظران ويرثيان ، ويعمل الأسمى في قلبيهما والعبد يسى بالطبق الى هذا الرجل المحزون ، حتى إذا انتهى إليه وضع الطبق بين يديه ، وأقبل الرجل على العبد يريد أن يصيب منه ، والعبد قائم منه غير بعيد ، ولكن القرشيين ينظران فيريان عجيباً : يريان كأن حديثاً قصيراً قد دار بين الرجل وبين هذا العبد ؛ ثم يريان العبد وقد أكب على هذا الرجل الحزين يقبل رأسه ويديه ورجليه باكية مستعبراً ، مندفعاً في حديث لا يكاد ينقضى ، مظهرراً من التكرمة والاحلال لهذا الرجل ما لم يتعود أن يظهر لأحد من سيديه . فيقول أحد القرشيين : ويحك لقد أفسد علينا ابن عمنا هذا العبد ؛ وما أرى إلا أن تقيماً معذرين إن خافوا منه على عبيدهم وضعفائهم وأقويائهم أيضاً ما خفنا نحن منه على العبيد والضعفاء والأقوياء ؛ وهذا الرجل قد نهض وقوراً هادئاً ، ومضى أمامه وقوراً هادئاً ، ومضى العبد معه شيئاً من الطريق . ثم وقف يشيعة بطرفه حتى غاب عن طرفه وعن طرف القرشيين

هنالك عاد العبد الى سيديه ، وفي وجهه آيات الكآبة والحزن . وفي وجهه مع ذلك آيات الطمأنينة والرضى ، ودموع تجرى من عينيه لم يدريا أكانت دموع حزن وابتئاس ، أم كانت دموع غبطة وابتهاج

يقول عتبة بن ربيعة للعبد رقيقاً به عطوفاً عليه : ويحك يا عداس ! إن لك نع هذا الرجل لشأناً ، فاقصص علينا بدء حديثك فقد رأيناك حفيماً به متلفظاً له ، مكباً عليه تقبله باكيةً مواسياً ، ثم مراقفاً له تشيعة بشخصك ثم بطرفك . قال العبد : نعم يا مولاي إن لي مع هذا الرجل لشأناً وحديثاً عجيباً ، وأجيب الى أن أقص عليكما حديثي ؛ ولكن أى حديثي تريدان ؟ أتريدان حديثي منذ اليوم ، أم تريدان حديثي القديم الذى مضت عليه أعوام طوال ، والذى دفنني إلى بلادكم هذه ، والذى اضطرنى إلى ما أنا فيه من

من تجارتها وأعود معها من قابل إلى الشام ، حتى إذا بعدنا عن بلاد الروم وانقطعت أسبابي من أسباب قيصر عدا أهل هذه القافلة على مالي فأحتجزوه ثم عدوا على فأخذوني بضاعة وباعوني من صاحبكنا ذلك الذي اشتريته مني منه قريباً من يثرب .

فهذا بدء حديثي أيها السيدان ، وقد عملت في بستانكنا أعواماً ، وكان الناس يتحدثون من حولي بهذه الأحداث التي تحدث في مكة ويتناقلون من حولي أبناء هذا الرجل الذي ينكر الأوثان ويدعو إلى التوحيد ، ويريد أن ينصف المظلوم من الظالم ، والمبدع من السيد ، ويسوي بين الضعيف والقوي ؛ وكان الناس يتحدثون من حولي بما يلقي هذا الرجل في بلده من شر . وما يتحدثون به أصحابه من ألوان الفتنة ، وكنت كل سمعت هذه الأحاديث هشتت لها ، وطابت بها نفسي ، وأحست أن النبأ الأعظم قريب ؛ وكنت أقدر أن صاحب هذا النبأ يجب أن يكون كاخوانه الذين سبقوه علماً بدين الله ، داعياً إليه ، مخبراً من أبناء الأولين بما لا يخبر به الناس ، وكم وددت لو أتيح لي أن أجد إلى مكنتكنا هذه فأسأل صاحبكنا وأسمع منه . ولكن الرق في بلادكنا شديد . فنحن أرأف منكم بالرق ، وأعطف منكم عليه ، وقد لبثت في بستانكنا هذا أسمع الأبناء وأتسمها وأحرق شوقاً إلى مصدرها حتى أقبل صاحبكنا هذا منذ حين ؛ ولقد رثيت له حين رأيت وأوشاب الناس من حوله يؤذونه بالسنتهم وأيديهم . ولقد همت أن أفزع لنصره والذود عنه ، وما كنت أعلم من أمره شيئاً ، ولكنها الرحمة عطفتي عليه ؛ ولقد همت أن أستأذنكنا في إيوائه وإيثاره بشي من القرى . ولكني رأيتكنا تنظران وتتحدثان ولا تنشطان ؛ ثم أمرتاني بالسعي إليه ، فلما بلغته سمعت منه كلاماً ما سمعت مثله في هذه الأرض . فلما سألته عن ذلك سألتني عن موطني . فلما أبأته به قال هذا موطن يونس نبي الله . فما شككت في أنه صاحبي الذي أقبلت أتمس أبناءه . قال عتبة ويحك يا عداس إن حديثك هذا لعجب ، ولكننا نحشى أن يفسد عليك صاحبنا دينك ، وإن دينك تخير مما يدعو إليه . قال عداس : مهلاً ياسيدي ! إن الذي يقول ما سمعت لا يدعو إلى شر ولا يفرى بفساد ، ولا يأمر إلا بمعروف ، ولا يقول إلا حقاً . قال شيبه : ويحك يا عداس لقد بسحرك صاحبنا فيمن سحر ، فإذا

الذات يستعينون بها على احتمال الحياة ؛ وأما الأقوياء وأولوهم فقد فكروا وقدروا وجدوا في التفكير والتقدير يتمون بما من حرج ومخرجاً من ضيق ، وكنت فيما رأيت من هؤلاء . ضقت بالحياة في مدينتي ولم أجد عند علمائها وقصصها شيئاً يجت مسافراً إلى الشام أتمس في السياحة تسلية وعلماً ، وأبنتي بما ظفراً بالخير ، ولست أقص عليكنا رحلتني إلى الشام وسألتني طريقاً إليها ، واضطرابني في مدينتها وقراها ، وبأسي من قصصها علمائها ، وضيق بسادتها وحكامها ، ولكنني انتهيت بعد كثير من الاضطراب إلى دير من الأديرة يقوم في آخر العمران وأول صحراء مما يلي بلادكم هذه ، وأقمت في هذا الدير دهرأ راضياً بن حياته الهادئة المطمئنة راضياً عن حياة أهله الآمنين الوادعين لأخيار ، ناعم النفس بمشورتهم مستمتاً بأحاديثهم ، ولكنني سمعت من أحاديثهم عجيباً : رأيت لهم فيما بينهم أمراً يتحدثون عنه بالمرض ، ويؤمنون إليه بالإشارة ، ورأيت حديثهم هذا الرمزى يكثر ويشتهر إيمانهم فيه كلما صرت بديرهم قافلة من قوافلكم هذه التي تتردد على بلاد الروم . رأيتهم يعرفون أبناء هذه القوافل قبل أن تصل إليهم فيتيأون لها ويستقبلونها ويكثرون من سؤالها ، ويظهرون الحفاوة بها . ثم يخلو بعضهم إلى بعض ، فيتبادلون بينهم أحاديث الرمز والاشارة والايحاء ، ويقول بعضهم لبعض : لم يأت النبأ بعد ؛ أو يقول بعضهم لبعض : لقد انقطع النبأ بعد أن جاءت بشارته . فلما كثر على منهم ذلك أزممت أن أعلم علمه ، فتلطفت لهم وتوسلت إليهم حتى عرفت أنهم ينتظرون إصلاحاً دينياً ذابال ، وأهمهم قرأوا في كتبهم أن هذا الإصلاح يأتيهم من قبل هذه البلاد ، وأهمهم حسبوا وقدروا ورأوا أن زمان هذا الإصلاح قد أظلم الناس ، وأن أبناء قد انتهت إليهم وأحاديث قد نقلت لهم . وكلها يدل على أن أوان هذا الإصلاح قد آن . ثم قصوا على من هذه الأبناء والبشار أطفافاً ، فلم أملك أن كلفت بالرحلة إلى بلادكم ، وقلت ما يمتني إن أبعدي السفر ؟ وما يمتني أن أتصل بقافلة من قوافلكم هذه فأبلغ معها هذه الأرض ، فأعلم من علمها ، وأصيب من تجارتها ؟ ولعلني أظفر بما يتحرق إليه هؤلاء الرهبان شوقاً ؛ وأنتما تعلمان كيف كان الاتفاق بيني وبين تلك القافلة التي أمنتني على نفسي ومالي ، وضمنت لي أن أبلغ بلادكم هذه موفوراً فأصيب

# منطقة الإيمان

للاستاذ توفيق الحكيم



حينما كنت وكيلًا  
لنائب العام كنت أرى  
عجبا في قاعات المحاكم  
وجلسات التحقيق؛  
وكنت أفكر كثيرا في  
أمر ذلك الشرير الذي  
طالعت صحيفة حياته فإذا  
آثام ودماء تسيل منها ،  
ومع ذلك يقف أمامي متطلعا  
الى السماء ، وبأني أن يقسم  
بالمصحف كذبا . هذا  
الآدمي قد انطلقت غرائزه

الدينا لا يقوم لها شيء ، لكن بقيت برغم هذا في نفسه منطقة عذراء ،  
لم يتطرق اليها فساد : منطقة العقيدة ! أهنالك إذن حد فاصل بين  
العقيدة والفرية ؟ كذلك كان يدعشني أمر صديق من خيرة  
القضاة ، كثير الورع ، حريص على العبادة والصلاة ؛ ومع ذلك  
بقي عقله حرا من كل قيد . ما يدور بيننا حديث في الخالق والخليقة  
حتى يذهب هو في التدليل والنطق كل مذهب الى أن يقع في  
الاحاد وإنتكار الجنة والنار . وينادي المؤذن بالصلاة فإذا القاضي  
يسرع مخلصا الى ذلك الدين الذي قل فيه منذ لحظة قولاً عظيما .  
أهنالك إذن حد فاصل بين العقيدة والعقل ؟

إذا قلنا مع القائلين إن العقل والقلب والفرية ملكات ثلاث  
منفصلة إحداها عن الأخرى ، فإن هذا القول يؤدي حتما الى نتائج  
غريبة قد تمدل من نظرنا الى الأشياء . ولعل أول ما يفهم من  
هذا الاستقلال بين الملكات تبين ألوان الحقيقة لدى كل منها ؛  
فما يصدق عند القلب ، قد لا يصدق عند العقل . بل إن كل ملكة  
من تلك الملكات تسيطر على عالم مختلف جد الاختلاف عن عالم  
الأخرى . يقابل ذلك في المحسوسات تلك الحدود والحواس بين

سمعت من عداس : بل قل لقد هداني فيمن هدى ، ولقد  
جى ربه بحدث ما سمعت أعذب منه . لقد حفظت  
يته ، وإنك لتعلم ما أنا بالعربي ، وما حفظ أحاديثكم على يسير .  
قال عتبة : فهات أعد علينا ما سمعت . قال سمعت يقول : « اللهم  
إليك أشكو ضعف قوتي وقلة حيلتي وهواني على الناس يا أرحم  
الراحمين . أنت رب المستضعفين وأنت ربي ، إلى من تكلني ؟ إلى بعيد  
يتجهمني ، أم إلى عدو ملكته أمرني ؟ إن لم يكن بك علي غضب  
فلا أبالي ، ولكن عافيتك هي أوسع لي ، أعوذ بنور وجهك الذي  
أشرقت له الظلمات ، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة ، من أن  
تنزل في غضبك ، أو يحل علي سخطك ، لك العتي حتى ترضى .  
ولا حول ولا قوة إلا بك » .

ولم يفرغ العبد من هذا الحديث حتى أغرق في بكاء هادي ،  
وأغرق سيده في وجوم عميق . ثم تاب القوم جميعا إلى أنفسهم  
ونظر القرشيان أحدهما الى بعض نظرة المستخذي الأسف . ثم  
قل عتبة لعداس : أنت وما تشاء يا عداس من حب صاحبك  
وطاعته ، ولكن لا تنس أن لنا عليك حقا وطاعة ، وأنا حريصان  
على ألا تظهر من أمرك شيئا فتضطرنا فيك الى ما نكره ، وتضطر  
فومنا فينا الى ما نكره .

ومضت أعوام وحدثت أحداث ، ونظر العبد الشيخ ذات  
يوم فإذا محمد صلى الله عليه وسلم قد ضرب عسكره حول الطائف  
بمحاصر فيها تقيفاً ؛ وكان عداس قد انتقل من ملك ابني ربيعة بمد  
موتهما الى الثقفيين ، وإذا نفسه تنازعه الى صاحبه ، وإذا هو  
بحرض الرقيق ويث فيهم الدعوة الى الخروج على ساداتهم وللحاق  
بجيش المحاصرين ، وإذا نفر من الرقيق يجتمعون اليه . ، وإذا هم  
يقترحون الأسوار ويهبطون الى المسكر مسرعين وترميمهم مقاتلة  
تقيف بالنبل فتصرع منهم جماعة فيهم عداس قد مات قبل أن  
يلغ صاحبه العظيم ، ويخلص سائرهم إلى النبي فيهديمهم الى الاسلام  
ويردهم الى الحرية ، وينصرف عن حصار الطائف حتى إذا أسلمت  
تقيف تكلمت في رقيتها أولئك وأرادت ردهم الى الطاعة ، فيقول  
النبي الكريم : كلا ! هؤلاء عتقاء الله